وهم السيطرة: القوة والسياسة الخارجية في القرن الحادي والعشرين

08-2-2004
العصر

وعلى الرغم من بعض النجاحات الجزئية التي حققتها القوة العسكرية الأمريكية خلال العقد الأخير..فالحقيقة أنها فشلت في تحقيق النتيجة السياسية المطلوبة وبخاصة بالنسبة لأفغانستان والعراق. فلا القوات الأمريكية اعتقلت أسامة بن لادن في أفغانستان ولا استطاعت توفير الأمن والاستقرار الذي كان توفره حكومة طالبان التي أسقطتها القوات الأمريكية ولا هي نجحت في السيطرة على الأمور في العراق رغم إسقاط نظام حكم صدام حسين بالفعل.

بقلم تأليف سيوم براون

تأليف سيوم براون
الناشر: مطبوعات معهد بروكنجز
صدر في يونيو عام 2003
العصر "خاص"

لم يكن قرار إدارة الرئيس الأمريكي بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 باعتماد القوة العسكرية المسلحة لفرض السيطرة الأمريكية على العالم وتثبيت أركان مشروع القرن الأمريكي الجديد الذي أعدته مجموعة سياسية تحمل نفس الاسم وتضم نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد وغيرهما من أقطاب المحافظين الجدد في منتصف التسعينيات نتيجة لهذه الهجمات ولكنه كان تطبيقا لاستراتيجية وضعتها هذه الإدارة فور وصولها إلى البيت الأبيض في يناير عام 2001 وربما قبل ذلك بكثير أثناء وجود الجمهوريين في المعارضة في واشنطن.

الباحث الأمريكي سيوم براون يكشف هذه الحقيقة المهمة في أحدث كتبه الذي يحمل عنوان "وهم السيطرة: القوة والسياسة الخارجية في القرن الحادي والعشرين" والصادر عن مطبوعات معهد بروكنجز الأمريكي المرموق للدراسات السياسية والاستراتيجية.

يحاول المؤلف الذي يعمل في الوقت نفسه أستاذا بقسم العلوم السياسية بجامعة براندیز الأمريكية وشارك في العديد من المشروعات البحثية للمعاهد الأمريكية مثل بروكنجز وكارنيجي وغيرهما، يحاول تشريح السياسة الخارجية لإدارة الرئيس بوش واعتمادها على القوة العسكرية رغم كل ما تنطوي عليه من مخاطر جسيمة.

حلفاء الأمس:

يقول المؤلف أن قطاعا عريضا في إدارة الرئيس بوش يؤمن أن القوة العسكرية الأمريكية وحدها قادرة على مواجهة كل ما يهدد الأمن القومي والمصالح الأمريكية. وهؤلاء المسئولون على حد قول المؤلف يرون أن التهديد باستخدام القوة أو استخدامها وسيلة أساسية وربما أولى في وضع كل عناصر الخطر والتهديد تحت السيطرة وبخاصة في ظل تنامي العداء للسيطرة الأمريكية على العالم لدى مختلف شعوب الأرض بما في ذلك شعوب كانت حتى وقت قريب ترى نفسها في خندق واحد مع الشعب الأمريكي.

و في هذا الإطار يشير الكاتب إلى العلاقات الراهنة بين فرنسا وألمانيا والعديد من الدول الأوروبية من ناحية وبين الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية أخرى، فيقول إن هذه الدول التي ظلت على مدى عشرات السنين تشكل مع الولايات المتحدة حلفا واحدا ضد الشيوعية وضد الكثير من المخاطر التي كانت تهدد العالم الغربي تباعدت عن بعضها البعض حتى وصل الأمر بالدعوة في أمريكا إلى مقاطعة المنتجات الفرنسية وهو ما رد عليه الفرنسيون بالمثل.

والواقع أن الرفض الأوروبي للسيطرة الأمريكية سابق على وصول الرئيس بوش وعصابة المحافظين الجدد اليمينية المتطرفة معه إلى الحكم و يعود إلى ما بعد انتهاء الحرب الباردة في أوائل تسعينيات القرن الماضي وتعالي الولايات المتحدة على دول العالم بما في ذلك على حلفائها نتيجة الشعور بالانفراد بالقوة في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. فتصاعدت منذ ذلك الحين حركات الرفض للسيطرة الأمريكية المتخفية تحت شعار العولمة وللثقافة الأمريكية ممثلة في سلاسل مطاعم الوجبات السريعة لذلك تحولت مطاعم كنتاكي وماكدونالدز لهدف مفضل لهجمات مناهضي السيطرة الأمريكية على العالم.

ويتكون الكتاب من خمسة فصول ومقدمة. تتناول المقدمة وهي بمثابة فصل أول مناقشة فكرة استخدام القوة العسكرية في السياسة الخارجية والرؤية الامريكية الحالية للعلاقة الجدلية بين هذين العنصرين في الدفاع عن المصالح وتحقيق الاستقرار والأمن.

أمريكا لن تظل طويلا على عرش العالم:

أما الفصل الثاني فيتحدث عن التغير الذي شهده النظام العالمي الجديد خلال السنوات الأخيرة. كما يطرح المؤلف في هذا الفصل تصوره للبناء السياسي للعالم في القرن الحادي والعشرين. ويؤكد الكتاب أن الولايات المتحدة لن تتمتع كثيرا بهذا الانفراد بالقوة في العالم لأسباب عديدة بعضها يتعلق بطبيعة الأشياء وبعضها يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية نفسها ومنهجها في ممارسة القوة وهو منهج تدميري بالنسبة لها ومثير بالنسبة للآخرين فيدفعهم إلى البحث عن تكتلات وقدرات تمكنهم من مواجهة الانفراد الأمريكي بالقوة. يقول الكاتب إن الولايات المتحدة باتت بالفعل القوة الوحيدة في النظام العالمي حاليا وأصبح التعاون معها أو معارضتها هو العنصر الحاسم في نجاح أو فشل أي مشروع أو برنامج أو سياسات بالدول الأخرى حاليا. ولكن بمرور الوقت ستجد الولايات

المتحدة صعوبة شديدة في استمرار قيامها بالدور الرئيسي في تحديد أمن واستقرار العالم. وفي هذا الفصل يتحدث المؤلف أيضا عن أربعة تحولات كبرى في استخدام القوة العسكرية كوسيلة من وسائل الدبلوماسية الأمريكية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى حرب العراق.

تحولات الفكر العسكري الأمريكي:

التحول الأول حدث نتيجة للحرب العالمية الثانية التي شهدت استخدام القوة العسكرية لتدمير مجتمع العدو بالكامل كما حدث من جانب الطيران البريطاني مع ألمانيا حيث ظل على مدى أكثر من عام يصب حممه على المدن الألمانية بهدف تدمير ألمانيا المكان والمجتمع تدميرا كاملا على الرغم من عدم وجود مبرر عسكري لمثل هذا القصف الرهيب ونفس الأمر حدث من جانب الولايات المتحدة مع اليابان عندما ضربتها بالقنابل النووية رغم هزيمة اليابان عسكريا بالفعل قبل الإقدام على هذه الخطوة.

التحول الثاني كان في بداية سنوات الحرب الباردة حيث تبنى الفكر العسكري الأمريكي مبدأ الردع بمعنى تطوير القوة العسكرية الأمريكية حتى تكون قادرة على ردع الاتحاد السوفيتي عن التفكير في مهاجمة الولايات المتحدة أو مصالحها الحيوية.

التحول الثالث جاء نتيجة للهزيمة العسكرية الأمريكية المؤلمة في حرب فيتنام والتي ألقت بظلالها ليس فقط على المؤسسة العسكرية الأمريكية ولكن على المجتمع الأمريكي كله حيث باتت فكرة إرسال قوات أمريكية لخوض حروب خارج الأراضي الأمريكية بمثابة كابوس للأمريكيين.

أما التحول الرابع والأخير فحدث في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة وشعور الولايات المتحدة بأنها أصبحت القوة العظمى الوحيدة على كوكب الأرض وعليها أن تلعب دور شرطي العالم. فكثر تدخل الولايات المتحدة في مناطق الصراعات الإقليمية من الصومال إلى البلقان. ثم جاءت هجمات الحادي عشر من سبتمبر لتفتح الباب واسعا أمام الانطلاق نحو تطبيق الفكر الإمبراطوري في السياسة الخارجية الأمريكية.

يتحدث الفصل الثالث عن التغييرات في شكل الحروب في القرن الحادي والعشرين في ضوء التحولات التكنولوجية الجذرية التي تتيح لدولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية شن الحروب عن بعد باستخدام أحدث التقنيات العسكرية وفي الوقت نفسه تتيح لمناهضي الولايات المتحدة مثل تنظيم القاعدة من توجيه ضربات مؤلمة إلى الإمبراطورية الأمريكية على الرغم من التفاوت الفلكي في القوة بين الطرفين. كما يتحدث عن اختفاء شكل الحرب التقليدية بين الولايات المتحدة ودول العالم لتجد أمريكا نفسها في مواجهة جماعات مسلحة رافضة لسيطرتها على العالم تهاجم المصالح الأمريكية داخل أمريكا وخارجها دون أن تجد أمريكا هدفا ملموسا يمكن أن توجه إليه ضرباتها الانتقامية.

عدالة الحرب الأمريكية:

وتحت عنوان "إعادة طرح فكرة الحرب العادلة" يتناول المؤلف في الفصل الرابع فكرة الحرب العادلة التي تتحدث عنها الولايات المتحدة الأمريكية حاليا في ظل انفرادها بالقوة على الصعيد العالمي بما يتيح لها فرض مفهومها للعدالة على الجميع لتصبح الحرب العادلة هي الحرب التي تريدها أمريكا كذلك والعكس صحيح فما لا تريده أمريكا لا يمكن أن يكون عادلا مهما كانت المبررات.

أما الفصل الخامس فيتحدث عن وهم السيطرة باستخدام القوة العسكرية. ويؤكد المؤلف في الفصل الأخير أن أمريكا تستطيع بالفعل فرض سيطرتها على العالم باستخدام القوة العسكرية الكاسحة لكنها في الوقت نفسه لن تتمكن بأي حال من الأحوال من الحفاظ على استمرار هذه السيطرة كما تأمل عصابة المحافظين الجدد.

وأخيرا يقدم الكتاب ثلاثة ملاحق عبارة عن مقتطفات من الوثائق التي تجسد الاستراتيجية الأمريكية الراهنة.

ففي الملحق الأول نجد مقتطفات من استراتيجية الأمن القومي الأمريكي للقرن الجديد التي وضعتها مجموعة القرن الأمريكي الجديد عام 1994 وتضم ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وريتشارد بيرل منظر الحرب الأمريكية على العراق ودوجلاس فيث نائب وزير الدفاع وبول وولفويتز نائب وزير الدفاع الأمريكي أيضا وعدد من أقطاب معسكر المحافظين الجدد في واشنطن.

أما الملحق الثاني فيتضمن مقتطفات من استراتيجية "إعادة هيكلة" القوة العسكرية الأمريكية التي يطبقها وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد حاليا والتي تعتمد على تطوير القدرات العسكرية الأمريكية بما يضمن لها تقليص الاعتماد على العنصر البشري والاعتماد على القدرات التدميرية العالية للأسلحة الأمريكية وتطورها التقني الذي يتيح استخدامها وتوجيهها عن بعد وبأقل عدد ممكن من الجنود. وفي هذه الاستراتيجية يأتي مشروع الدرع الصاروخي والقنابل النووية الصغيرة التي يمكن استخدامها في الصراعات الإقليمية ضد أهداف عسكرية.

أما الملحق الأخير فعبارة عن مقتطفات من استراتيجية الأمن القومي الأمريكي عرضها الرئيس جورج بوش في سبتمبر 2002 وفيها يتحدث عن حق أمريكا في استخدام القوة ضد أي محاولة ليس فقط لتهديد المصالح أو الأمن الأمريكي ولكن أيضا ما من شأنه تهديد انفراد أمريكا بالسيطرة على العالم.

والحقيقة أن تمدد قائمة المصالح الأمريكية وتنوع محتوياتها دعمت موقف المعسكر المنادي باعتماد القوة العسكرية وسيلة أولية لحماية هذه المصالح التي لا تحظى باعتراف الكثير من الدول والشعوب لذلك فإن أمريكا في سبيل حفاظها لما تراه مصالحها لا تحظى بأي تعاطف من شعوب أغلب دول العالم. فما تراه أمريكا مصالح حيوية من حقها الدفاع عنها يراها العالم رغبة أمريكية في السيطرة والاستحواذ على مقدرات هذا العالم.

عصابة المحافظين الجدد في البيت الأبيض:

ويرصد الكاتب انفصاما خطيرا في شخصية إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش. ففي معركة الانتخابات الرئاسة الأمريكية الماضية عام 2000 شن مرشح الجمهوريين في ذلك الوقت جورج بوش الأب هجوما عنيفا على إدارة الرئيس الديموقراطي بيل كلينتون بسبب إسرافها في التدخل في الصراعات الدولية والإقليمية رغم أن المصالح الأمريكية الحيوية لم تكن تواجه مخاطر حقيقية.

وكذلك هاجم اهتمام هذه الإدارة بالسياسة الخارجية على حساب القضايا الداخلية. وما إن وصل الرئيس بوش إلى الحكم والتف حوله المحافظون الجدد سواء من تقلدوا مناصب رسمية داخل الإدارة مثل دوجلاس فيث وبول وولفويتز أو من لم يتقلدوا مناصب رسمية مثل جماعة مجلة ستاندرد ويكلي حتى قفزت السياسة الخارجية لتحتل قمة أجندة الإدارة الجمهورية الجديدة وتخرج مجموعة القرن الأمريكي الجديد خطتها التي وضعتها في منتصف التسعينيات من القرن الماضي والتي ترتكز على فكرة واحدة مؤداها "ضرورة الاستفادة من التفوق الكاسح للقوة العسكرية الأمريكية في العالم حاليا لفرض السيطرة الأمريكية بمفهوم

إمبراطوري على هذا العالم ومنع ظهور أي قوى يمكن أن تهدد هذه السيطرة على مدى القرن الحادي والعشرين واستخدام كل الوسائل المتاحة بما فيها بل وفي مقدمتها القوة العسكرية".

ويحذر المؤلف من حقيقة أن الحروب كظاهرة عنيفة تستعصي على السيطرة. فقد قيل قديما إنك تستطيع أن تبدأ حربا لكنك بالتأكيد لا تستطيع إنهاءها. ويقول أنه يحذر من احتمال خروج استخدام الولايات المتحدة الأمريكية للقوة العسكرية عن السيطرة بعيدا عن رغبة المسئولين الأمريكيين الذين يستخدمون هذه القوة. في الوقت نفسه يؤكد الكاتب حقيقة أخرى وهي أن التلويح باستخدام القوة العسكرية يمكن في ظروف معينة أن يكون كافيا لمنع الطرف الآخر من التفكير في اتخاذ أي تحرك عدائي.

وعلى الرغم من بعض النجاحات الجزئية التي حققتها القوة العسكرية الأمريكية خلال العقد الأخير بدءا من عاصفة الصحراء وتحرير الكويت عام 1991 ثم القصف الجوي العنيف ليوغوسلافيا وإجبارها على تسوية أزمة إقليم كوسوفو ثم الحرب في أفغانستان والحرب ضد العراق، فالحقيقة أنها فشلت في تحقيق النتيجة السياسية المطلوبة وبخاصة بالنسبة لأفغانستان والعراق. فلا القوات الأمريكية اعتقلت أسامة بن لادن في أفغانستان ولا استطاعت توفير الأمن والاستقرار الذي كان توفره حكومة طالبان التي أسقطتها القوات الأمريكية ولا هي نجحت في السيطرة على الأمور في العراق رغم إسقاط نظام حكم صدام حسين بالفعل.

للعودة للأعلى